الفضيلة

خطبة لحضرة المؤرخ المحقق جرجي افندي ينى تلاها في بيروت بطلب جمعية يد المساعدة في ٢٧ مارس

استهل خطابي بحمد الله تعالى عداد نعمهِ واجهر بالدعاء المفروض لحضرة سيدنا ومولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان واثني الثناء الجميل عَلَى ربات الفضل رئيسة جمعيَّة يد المساعدة واعضائها الفاضلات الكرائم اللواتي دفع بهنَّ حب الانسانيَّة ونصرة ضعاف الحال الى اغاثة الملهوف باطعام الجياع وكسي العراة وايواء المعوزين الذين اقعدهم الدهر عن الكسب فانقطعت عنهم موارد الرزق واصبحوا عالةً عَلَى اهل البر

فيا لله ما اسمى وما اشرف من غايةٍ نبيلة حملت كرائم السيدات على تخفيف ويل بني الانسان فعقدنَ هذه الجمعيَّة استدرارًا للاحسان من اكف الاسخياء وامرنني وهنَّ المطاعات ان اقف في بهرة هذا النادي الجليل خطيبًا والقينَ اليَّ اختيار الموضوع فنكرت في الامر مليًا وما رأيت قولاً اوقع في النفس وادنى الى مراعاة التنظير بين الغاية السامية التي تتوخاها ربات الاحسان والعمل الذي امرنني ان اقوم بهِ من الفضيلة اذ هي حلية هاتيك الكرائم وغاية اعمالهنَّ ومنتهى مقاصدمن النبيلة بل هي واسطة عقد هذا المحفل الجليل المنتظم فيهِ فرائد البشر من كل عالمٍ نحرير وكاتبٍ نبيلة وسريٍ عظيم وسيدةٍ شريفة

فالفضيلة يا سادتي كلمة اشتقَّ معناها في اللغات العربيَّة واليونانيَّة واللاتينيَّة من اصول يشتق منها معنى الكمال والسمو ويُراد بها عند الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين قوى النفس السالكة بالانسان في مناهج الخير . على ان الحكماء المتكلمين في خصائصها قد اكثروا من حدها ووصفها وتفننوا بمدحها وتشعبت اقوالهم عنها حتى اوشكوا ان لا يكون لهم فيها حدٌّ جامع مانع . وحسبنا برهانًا ما نرى من تباين اقوالهم عنها منذ بدء الفلسفة الى اليوم . قال فيثاغورس ان الكمال لله تعالى وان عقلاء البشر يتخذونهُ ولكنهم لا يدركون تمام الحكمة وانما يتصلون الى محبتها وهي الفلسفة وان في الانسان روحين حيوانيَّة مركزها القلب وادبيَّة مركزها الدماغ والثانية افضل من الاولى واسمى ومن نتاجها الرزانة والعفاف والصدق والعدل والحب والصداقة . وزعم هيراكليتوس ان فائدة البشر ليست في ملذاتهم ولكنها في سعادتهم وان عليهم ان يتحلوا بالعفة والجسارة والرجاء وان يتجنبوا الضلال

اما سقراط شيخ حكماء اليونان فقد فصل بين الخير والشر وعلَّم بسمو قدر الواجبات

ولكنهُ لم يحدّد الفضيلة بل حبَّب الى تلامذتهِ ان يعرفوا حب الله والعدل والصدق والحكمة والشجاعة والعفاف

وزعم كنفوشيوس فيلسوف الصين ان الفضيلة قائمة بمعرفة الذات وبالاعتدال

وقال بعض الحكماء انها ميل النفس وارتياحها. وذهب آخر الى انها الجهد الذي نعانيهِ في انفسنا لافادة القريب مرضاةً للباري تعالى . وزعم غير هؤلاء انها ناموس الطبيعة في النفس. وقال بعضهم انها القوى ٱلَّتي تعمل لمعرفة الحق او للصلاح . ومما ذهب اليهِ سقراط ايضاً وتابعهُ فيهِ كانون فيلسوف الرومان ان الاعمال الجيدة لا تبلغ مكانها من السمو الاَّ اذا صدرت عن الفضيلة. وكأن في هذا القول شيئاً من فلسفة الرواقيين الذين قالوا ان الفضيلة هي كمال العقل

هذه هي الفضيلة ٱلَّتي حام حول وصفها الفلاسفة والعلماء والشعراء والخطباء منذ الوف من السنين بل هي ٱلَّتي تمثلت من قبل للذين سادوا وشادوا في بلاد النيل فعظموها وعبدوها وبنوا لها الهياكل العظام الباقية آثارها حتى اليوم اهجةً للناظرين ودهشةً للباحثين. وهي هي التي تراءت للامم النابغة على ضفاف دجلة والفرات فشادوا لها الهياكل طباقاً ولم تزل انقاضها حيرةً للناقبين . بل هي هي التي دان اليوناني لسمو قدرها فحنى لها الهام خشوعاً في اكر بولهِ الباهر وهي هي التي عنى الروماني فسجد لها خضوعاً في كابيتولهِ الفاخر

وحسبي في بيان مزيتها ما ابسط لدى سادتي من اتفاق الناس على تعظيم قدرها مع اختلافهم في سائر الشؤون

لا خفاء ان الله تعالى خلق الكون وعمرهُ من الاحياء بالحيوان والنبات وجعلها فيهِ على اسوةٍ في الحياة والنمو والدثور. فاذا بلغ الواصف الى الحركة المختارة والحس اخرج النبات على قولٍ وبقي الحيوان اجمالاً ومن انواعهِ الانسان وهو يشارك افراد الجنس في الحركة والحس والشهوات والاميال وسائر الاعمال الحيوانيَّة الاَّ ان الفارق بين الجنس والنوع على قول بعض الحكماء انما هو النطق في الانسان والحال ان بعض الحيوان ناطق كالببغاء ومن العلماء من يظن ان للحيوانات لغًى تتفاهم بها بين افراد نوعها وترى منهم نفرًا يزجون الركاب إلى استنباطها ولعلهم يفلحون فاذا تبين ذلك لم يبقَ النطق فارقاً بين الجنس والنوع

واذا حسبنا العقل فارقاً عارضنا ما نعلم من ثبوت الادراك في بديهة الحيوان فاضطررنا ان نبحث في الخصائص المقوّمة للنوع ايجاداً للفارق وتمييزاً لنا عن مطلق الجنس وما نحن بالواجدين ما يرفع الانسان علوًّا عن الحيوان الاَّ قوى النفس ٱلَّتي يستقلُّ الانسان بها عن

سائر المخلوقات على ان بعضاً من الباحثين وقفوا حيارى لا يدرون كيف يحسبون المشاركة بين الانسان والحيوان لظنهم ان البديهة وسائر الصفات المشتركة بين الجنس والنوع انما هي من قوى النفس ولكن المحققين على خلاف زعم هؤلاء اذ يقولون ان القوى المشتركة ليست في شيء من النفس ولكنها جسدية حيوانية

والفارق عند هؤلاء المحققين يعلو بمنزلة الانسان كثيراً لاعتبار قوى نفسه هي الفاعلة في فضائله فهو ممتاز بالعقل الراشد وبالايماء النفسي بوجود الصانع الازل الذي يعلو علوًّا كبيراً عن احاطة الزمان والمكان به وبما في النفس من صورة الجمال المطلقة الذي لا مثال له في عالم المحسوسات وبالادب البحت وما يقتضيه حال ذلك الادب من القيام المستمر على محاربة الشرور وبتحكيم الضمير: هذا هو الانسان. لان العواطف والاميال والشهوات والشهيات كلها حيوان وقد تدفع بالمرء إلى اقتحام الشرور غير متهيب ولا وجل رجوعاً بميله الى جنسه الحيواني فيخرج بتصرفه عن الانسان

ولولا ان في النفس زاجراً عظيماً ينازع ذلك الميل المنحرف لحقت قوى النفس وطمست الحيوانية على الفضائل. ولكن الفضل كل الفضل لسنة التنازع التي جعلها الله في خلقه ناموساً عاماً فترى كل العوالم الظاهرة للعيان والخافية الا عن ادق الادوات لا تنفك عن الكفاح حفظاً لنوعها وخضداً لشوكة خصمها وحسبنا على ذلك شاهداً تلك الاحياء الصغرى السابحة الوقاً مؤلفة في النقطة الواحدة كالميكروبات او كالكريات الحمراء والبيضاء في الدم وكلها مما لا يرى الا بالمكبرات فانها جميعها في تنازع مستمر حتى يغلب بعضها بعضاً

وعلى هذا المبدإ مخاصمة قوى النفس للاميال الحيوانية فاذا غلبت هاتيك الاميال ظهرت الرذيلة وان غلبت الشهوات الحيوانية تجلت الفضيلة بابهى حليها

وكأن اصحاب المثنوية من تباع زرادشت قد حاموا في دولة بني ساسان الفارسية حول هذا المبدإ فجعلوا اورمازد واهرمان الهي الخير والشر اخوين توأمين واصلوا بينهما حرباً عواناً

فاتضح من ذلك ان الفضيلة انما هي انتصار قوى النفس على الحيوانية ألا ترى انا اذا رأينا جناية نقترف على مشهد منا تنقبض لها نفوسنا وان شهدنا مبرة ابرقت لها اسرتنا

ولا يعارض هذا بما نرى في بعض الاحايين من عكس ذلك لان الانفعال من الخير والشر قد لا يظهر لارب في النفس وانما هي في كل نفس ضمير عادل يحكم على الصلاح والطلاح ولا يبرح فاعلاً ما دامت النفس والاميال في حربها. وهذا الضمير لا يكذب ولا

يخون ولا يحابي ولكنهُ يتم عملهُ رضي صاحبهُ أو لم يرضَ على ان لا يكلّفهُ في اجارهِ على امتثال حكمهِ وانما ذلك موقوف على انتصار قوى النفس بجملتها على الاميال الحيوانيَّة

وليس لقوى النفس تحديد علمي لانها غير واقعة تحت الحصر وانما تعرف بآثارها ويراها الباحث تزداد ظهورًا وثبوتًا كلما امعن في دراسة طبائع الحيوان الاترى ان العجماوات على اختلافها لا تفرط في الشهوات والشهيات ولكنها تمسك عنها عندقضاء حاجتها منها بخلاف الانسان فان فيهِ جشعًا للمزيد فاذا اكل ابتغى النهم وان نام فالى الضحى وان اقتنى ادَّخر إلى غير ذلك من طموح عينيهِ الى ما وراء نوالهِ فهو في ذلك متشوف الى مالم ينل فيقع من جراء تشوفهِ في التنازع بين قوى نفسهِ الآمرة بالخير واميالهِ الحيوانيَّة

ومن خصائص الفضيلة انها عميمة لاتنتمي الى بلدٍ فردٍ ولا يختص بها فريق من الناس ولكنها رفيقة الانسان منذ خليقتهِ اذ ان ايماء النفس بوجود الله تعالى وبما اعدَّ من الثواب والعقاب في الدار الآخرة انما هو اول الفضائل واسماها

ولقد بقي الاعتقاد بهِ تعالى وبوحدانيتهِ سليمًا من الشرك امدًا طويلاً بما تلقنهُ الاوائل عن ابائهم فلما كرَّت الدهور وتبعثرت قبائل البشر بقي في محفوظ القوم ذكر هاتيك الصفات الجليلة التي حفظت كيانهم وحبتهم كثيرًا من النعم ولما اوحت اليهم نفوسهم ان يفزعوا إلى ربٍّ يؤدونهُ واجب العبادة ويسألونهُ قضاء مآربهم يومئذٍ الَّهوا الصفات التي نُقلت اليهم عن باريهم الحق عز وجل ولكنهم تمادوا واغواهم الغرور فزادوا في التعظيم فالتأليه حتى تعددت عندهم الارباب ولكنهم مع ذلك حفظوا الزعامة لكبير معبوداتهم ونعتوهُ بجليل الاوصاف مما يصح ان يقال فيها انها بقية ما عرف اجدادهم عن الحق تعالى

وهذا الرأي يصدق على معبودات جميع الامم من المصريين والهنود والصينيين والكلدان والاشوريين والبابليين والماديين والفرس والفينيقيين واليونان والرومان وغيرهم ممن ظهرت لاهل النقد حقائق دياناتهم واخبار معبوداتهم وصرَّح الباحثون بأرائهم عنهم. ونحن ذاكرون طرفًا من ذلك فنقول : انَّا اذا قرأنا الاساطير المحكاة عن اولئك الارباب نراها اقاصيص موضوعة لتفخيم اشخاص مازتهم احدى الفضائل الكبرى ونشهد منها في بعض هاتيك الاخبار الافصاح عن صفاتٍ جليلة مما يخلق ان ينعت بهِ الباري عز وجل كقول المصريين عن معبودهم الاكبر انهُ المبدع المفرد خالق ما في السماء وما على الارض والذي لم يخلقهُ احدٌ والاله الواحد الحقيقي الحيّ المبدع ذاتهُ والموجود منذ الازل الذي صنع كل شيء ولم يكُ مصنوعًا. وكقول الاشوريين عن معبودهم انهُ الرب العظيم ملك الالهة والمتسلط على المعبودات . واما

الاريون فقد تبعوا مذهب زراوست المعروف عندهم بزرادشت فاعتقدوا بالوهيَّة اهورامازدا وقد اختلف علماء عصرنا في ترجمة اسمهِ فمن قائل انهُ الحكيم الحي ومن زاعمٍ انهُ معطي الحياة الاعظم ومن ذاهبٍ الى انهُ الحي الخالق كل شيء إلى غير ذلك. ولهم في نعتهِ اقوال جمة منها انهُ اسمى مواضيع العبادة والخالق الصحيح والحافظ والحاكم على الكائنات وهو خالق الحياة الارضيَّة والروحيَّة وقد صنع الاجرام السمويَّة وابدع التراب والماء والشجر وكل شيء حسن لانهُ صالح ومقدس وطاهر وصادق ومالك العافية والغنى والحكمة والخلود

كذا كانت عبادة الآريين وكذلك عبادة ايل عند الكلدان والبابليين وزيوس عند اليونان وجوبتير عند الرومان. واسم الجلالة مشتق من معنى السيادة والزعامة كما ترون في اسماء المعبودات ايل واشور وايلوهيم وجاهونا ومولوك وزيوس وجوبتير. بل زعم بعض العلماء ان ايلوهيم العبرانيَّة مشتقة من ايل الكلدانيَّة ومنها اشتق اسم الجلالة في السريانيَّة والعربيَّة وكذلك استمدَّ اليونان اسم زيوس والرومان اسم جوبتير والفرنجة اسم ديو

فاتضح من ذلك ان البشر كانوا في بادىء امرهم يدينون لربٍّ واحد وانهم ظلوا على عقيدتهم حتى تلوَّثوا بالوثنيَّة

ولرب معترض يقول كيف أُلمّ باضمار التوحيد عند الوثنيين ونحن نعرف ان الكلدان كانوا من الصابئة الذين يعبدون الشمس والقمر والنجوم وان المصريين كانوا يؤلهون الكواكب ويعبدون الاصنام وبعض الحيوان وان كثيرين غير هؤلاء كانوا يعبدون اسلافهم او كانوا من عبَّاد الحيوان او النبات وامثال ذلك من ضروب العبادات الوثنيَّة قلت ان الباحثين في شؤون المصريين والكلدان يحكمون بكيان اديانهم على نوعين نوعٍ يعرفهُ عامة الناس فيتخذون بهِ الوثن من دون الله ربًّا ونوعٍ يبقى من اسرار اهل العلم والكهانة عندهم. ولنا على ذلك كثير من الادلة ألتي يعوزنا الوقت لسردها الآ ان من اهمها ان الشمس وهي من اعاظم المعبودات المصريَّة لم تكن عندهم ربًّا واحدًا ولكنها عدة اربابٍ عظام ربما تجاوز عدها العشرة والمصريون يعبدون منها على هذا النمط نورها وحرها وشعاعها وغير ذلك والكل عبارة عن عبادة جرمٍ واحد تعود عبادتهُ إلى المعبود الاعظم

فاذا تبيَّن ذلك لدى سادتي اعزهم الله اتضح لديهم ان اسمى الفضائل واعلاها الا وهي عبادة الباري تعالى كانت من الازل امرًا مستفاضًا بين الامم ولو طمست عليها في الاحايين اضاليل اهل الشرك

اما الفضائل الاخرى فقد ظهرت لم يباهرٍ كالاتها فما لبثوا ان رفوها حقها من التعظيم

والتبجيل بتأليهما جريًا عَلَى ما اعتادوهُ من تأليه كلما رأوهُ عظيمًا في الكائنات من ذلك انهم الهوا الحكمة فعبدها المصريون باسم نيت والكلدان والاشوريون والبابليون باسم نبو او حرا والاريون تباع زرادست باسم مازدا واليونان والرومان باسم مينرفا . وكذا الصدق عبدهُ المصريون ربين احدهما فتاح والثاني ما وكذلك سجد لهُ الكلدان ومن تابعهم تحت اسم بعل ميروداخ وعبدهُ الاريون باسم اشافاهيستا او اردباشيت

هذَا مثال تأليه فضيلتين فقط من الفضائل التي الّها الناس في الزمن القديم اسمى مقام يستطيعون الانتهاء اليهِ في السمو الَّا ان اظهر اثر للفضيلة في عقائد الاقدمين كان تعليم زرواستر فانهُ قسم المعبودات قسمين وجعل احدهما للخير تحت زعامة ربّ سماهُ اهورامازدا والثاني للشر تحت رئاسة رب دعاهُ انكرومانو وزعم ان لكلٍ من الزعيمين اعوانًا بمثابة ارباب صغار فاسماء حزب الخير تترجم بالصدق السامي ومعطي الغنى والارض والعافية والخلود. وترجمة اسماء اعوان الشر العقل السقيم واله الحرب والصواعق ومخرب البلاد والضلال

وقصارى القول ان الفضيلة هي الضالة التي نشدها العلماء والفلاسفة وحام حول وصفها مشترعو اليونان والرومان في عصورهم وسبقهم للبحث عنها كنفوشيوس وزرواستر وغيرهما من علماء العصور الخالية وكلهم بهرتهم محاسنها واخذتهم فخامة كمالاتها فرفعوها من الجيد والسمو قصيًا ولكنهم سقطوا بها وهم لا يشعرون ذلك لان تأليه الفضائل بذاتها او بالذات الظاهرة آثارها فيها ممَّا لا يرضي الاله الواحد لما فيهِ من الشرك وهذَا المامٌ عظيم بالفضيلة الاولى عَلَى ان الذين التوى القصد عليهم بهذا التأليه لم يفقهوا الامر بل ظلت العبادة الصحيحة امرًا خفيًا الَّا عن الذين أُوتوا يومئذٍ شيئًا من الحكمة والعلم

ومن ثمَّ فان تأليه الفضائل وتعظيم قدر ذويها لم يكن بالدليل عَلَى ان الاقدمين كانوا اشد من ابناء هذَا العصر تمسكًا باذيال الفضيلة وعملاً بمبادئها بل بالعكس نرى انهم كانوا ينحرفون كثيرًا عن جادة الحقيقة جاعلين بين الفضائل اشياء ليست منها في شيء بل تخالفها عَلَى خطٍ مستقيم اعتبر ذلك بما عرف من تطرق كثير من المفاسد والرذائل إِلَى مصاف الفضائل وهي في الحقيقة براءٌ منها فان المصريين كانوا يحسبون بعض الحيوان مقدسًا ويحرصون عَلَى حياته اكثر من حرصهم على الانسان حتى اذا اتفق لاحدهم ان يقتل ذلك الحيوان ولو عرَضًا استحق العقاب موتًا زؤامًا واذا حاربوا وعادوا ظافرين يحمل الكمي منهم كثيرًا من ايدي القتلى او اذانهم او السنتهم تفاخرًا بما كسب منها فيلقى كاتبًا من قبل حكومتهم لتدوين عديد ما بتر من اشلاء قتلاهُ كل ذلك يدل على نقص في تصورهم كمال الفضيلة. اما في

المعاملات فانهم كانوا خوّانة محتالين وفيهم طمع شديد ناهيك بميلهم للسكر والفسق والخلاعة

اما الاشوريون فقد كانت شجاعتهم المشهورة ملطخة بعار القسوة والبربرة اعتبر ذلك بما كان من هجومهم على قتلاهم واحتزاز رؤوسهم وحملها الى مضاربهم تفاخرًا بالظفر اما اسراهم فانهم كانوا انحس حالاً اذ كانت تثقب شفاههم ويمرّ الحبل من الثقب الواحد الى الثقب الآخر فينتظم منهم عَلَى هٰذَا النسق الفريد في باب التعذيب بضعة عشر اسيرًا والواحد منهم يمتد العنق صوب الاخر القاء المزيد من الم الجرح الدامي والكل في وجهة ماسك الحبل ليمذبهم ما شاء الى البربرة سبيلاً

وانكى من هٰذَا واشد فظاعة سلخهم بعض الاسارى احياء انتفاعًا بجلودهم

ومع انهم كانوا عَلَى جانب عظيم من العُجب والكبرياء حتى انهم ليحسبون انفسهم فوق سائر الناس قدرًا فان نفوسهم كانت دنيئة الى حد ان يعدلوا الى الحيلة والخديعة وارتكاب احط ضروب الدعارة لاقتناص المال غير مدخرين وسعًا ولا منكبين عن سبيل يؤدي بهم لنيل النوال فتراهم يكذبون ويغدرون ويسرقون كأنهم لم يأتوا منكرًا لان المال وجهتهم وانما حاجتهم اليهِ للانفاق منهُ عَلَى الترف والبذخ وما يجرّان وراءهما من الرذائل

ولما دالت دولتهم وغلبهم المادیون على الامر في بلادهم وما اليها والقوم يومئذٍ في حال هو الى البداوة اقرب منهُ الى الحضارة لم يكن فيهم شيء من ترف مغلوبيهم الاَّ انهم مع ذلك لم يحرزوا من فضائل مشترعهم زرادست شيئًا كثيرًا مع انهُ كان لذلك الحكيم القدح المعلّى في آداب هاتيك القرون الا تراهم وقد ملكوا الامر يستعملون السيف في خضد من ناوأهم فلا يرحمون ضعافًا ولا صغارًا كأن الشفقة لا تعرف قلوبهم القاسية ولم تمضِ عليهم السنون الطوال حتى اغوتهم الحضارة ببهارجها فانغمسوا في بحار النعيم واخذهم الترف من حيث لا يدرون اذ اتصلت اليهم عدوى الرذائل من مغلوبيهم الاشوريين فاصبحوا وقد غلبتهم ملكات الدعارة والفسق والبطر والسكر فسلبوا الرشاد

اما الفرس في الدولة الاولى فانهم كانوا يتمسكون بعروة الصدق الوثقى رافعين شأن هذه الفضيلة غير انهم لم يفقهوا حقيقة الواجب في اتباعها فضلوا سواء السبيل اذ امتنع العظماء والكبراء منهم عن البيع والشراء انفةً واستكبارًا حسبان انهم يقادون الى الوقوع في احبولة الكذب اضطرارًا للكسب في التجارات اما الاوساط فانما قعدوا عن البيع فقط واقتصروا على شراء ما يحتاجون فبقيت التجارة منحصرةً في ايدي غوغاء الناس واسافلهم وظل جمهور الوجهاء والاعيان كسالى لا يأتون عملاً مترفعين في ظنهم عن مماثلة الدونة في كدهم وليتهم عرفوا

ان ذيّاك الترفع الموهوم عين الحطة وذات الرذيلة وان العمل شريف بذاته والصدق مطلوب لنجاحه وان هو الاّ دعامة من دعائمه والبطالة التي فرضها عظماء الفرس على انفسهم مدعاة إلى الفساد على حد ما قال الشاعر

ان الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء اي مفسده

فانها دفعت بهم إلى التماس الشهوات والخبائث فتجاوزوا فيها الحد واتصلت عدوى كسلهم وترفعهم عن العمل بنسائهم فقعدن عن الاهتمام بشؤون بيوتهن استكبارًا فكانت بطالتهن مدرسة اصغارهن يعلمهم فيها طرائق الكسل والخناثة وما في ذيولها من الشرور

واغرب مما مرّ ان احداث الفرس كانوا يتعلمون فنون الحرب وابواب الفروسية والشجاعة وركوب الخيل في مدى خمس عشر سنة حتى يتقنوا الرماية وضرب الحسام وامثال ذلك من معدات القتال فاذا قضوا اللبانة من التعلم قعدوا عن كل عمل كما قلنا الاّ عن التماس الملاذ فينغمس الفارسي في التخنث والجبن ولا تغنيه السنون الطوال التي قضاها تمرنًا على القتال عن الدأب فتيلاً بل تذهب البسالة ادراج الرياح ولا يبقى لها في الفارسي من اثر الاّ لدن تصويبه سهام انتقامه يومئذٍ تظهر مكنونات قسوته ولا سيما عند صلم الاذان وجدع الانوف وسمل العيون وقطع الالسنة وامثالها

اما اليونان فقد عظموا قدر الفضيلة من جهة وبخسوها حقها من الاخرى بتجاوزهم الحد في كثير منها. اعتبر ذلك بما كان عند السبارتيين من الحيف والجور على الهلوت ارقائهم الذين لم يكن لهم شيء من الحقوق لدى سادتهم تلقاء ما عليهم لهم من الواجبات بل كانوا اذا وُجد منهم نابغٌ في القوى البدنيّة او العقليّة قتلوهُ سرًّا لئلا يعرف اترابهُ بحسن صفاته فيحقدونها

والبربرة كل البربرة ان فتيان السبارتيين كانوا اذا ارادوا التمرن على الرماية استهدفوا اولئك الارقاء لسهامهم ورموهم بها فيقتلون والفتيان عن ذلك لا يُسألون

وكان نظام التعليم عندهم بالغًا الغاية القصوى من اهمال القوى العقليّة والاهتمام منحصرًا بانماء الجسم وتقويته اذ ان معظم عنايتهم كان منصرفًا لانتاج رجال اشداء يصبرون على الاذى ولهذا كانوا يعوّدون الصغار على احتمال الضرب المبرح حتى ان كثيرين منهم كانوا يموتون تحت الجلد

ولم يكونوا يرتضون بالارتزاق من ابواب الكسب الحلال حاسبين جمهور امتهم كالجند المجنّد في المعسكر بحيث يسوغ لهم جمع الذخيرة والزاد الى اتفق ولهذا كانوا يعوّدون فتيانهم على السلب والنهب ويعجبون ببهارتهم في ابواب السرقة ولكن الويل كل الويل لمن لا يحسن

اخفاء غنيمتهِ بحيث اذا أُخذ فيها نال عقاباً صارماً لا لتأديبهِ على سرقتهِ بل لانهُ لم يكُ حاذقاً في اخفائها . ومن ذلك ما يحكى عن فتى منهم انهُ سرق ثعلباً وخبأهُ تحت ثيابهِ لينجو بهِ فشرع الثعلب ينهش من لحمانهِ والفتى رابط الجأش لا تدل اسارير وجههِ على شيء من حالهِ

اما الرومان فقد ورثوا عن الاتروسكيين رذيلةً من اقبح الرذائل ذلك ان الاتروسكيين كانوا يذبحون عديدًا من الاسرى على ضريح من اشتهر بينهم بالشجاعة كما تحرق نساء الهنود على قبور ازواجهنَّ مع ان البراهمة اصحاب دينهم ينكرون ذبح الحيوان الاعجم فلما استفحل امر الرومان اخذوا العادة عن اسلافهم ثم استعظموا ذبح الاسارى دماً بارداً فجعلوا المصارعة سبيلاً لقتلهم وما لبثت تلك المشاهد الدمويَّة ان استهوتهم فمالوا اليها بكليتهم وابتنوا المشاهد الضخام ليقتل عليها بنو الانسان

هذا يا سادتي حال الفضيلة عند الاقوام السابقين في مشهد الوجود فانها كانت كالزهور العطرة تكتنفها الاشواك من كل صوب وناحية اما اليوم فهي اقرب إلى التمام لانها جرت في نموها واعتلائها صوب الكمال على مجرى ناموس الارتقاء العام ووقع الانتخاب الطبيعي على غرسها النامي فانتصر وذوى الشوك المحيط بها او كاد بل عُرفت الحقيقة الحقة من زخارف الباطل . كل ذلك منذ ظهور الديانة المسيحيَّة

وحسبنا في الاستدلال على هذه الحقيقة ما نعرف من ان فلاسفة الرومان وعلماءهم وخطباءهم وشعراءهم المجيدين كلهم جمع رأوا مقارعة المصارعين وشاهدوا بام العين الدماء تسيل من جراح الساقطين وسمعوا بآذانهم انين الجرحى وحشرجة القتلى ولم يأخذهم الحنان او ينبض فيهم عرق لرأفة ولا اشفقوا على قلوب النساء الحنَّانة طبعاً ان تلوَّث بادران القسوة والغلظة ولم يخشوا ان تربى صغارهم على مثل تلك البربرة ولكنهم مرَّت بهم هاتيك الحادثات كأنها ليست بذات بال حتى كرَّت الدهور وجاءت الديانة المسيحيَّة بالفضيلة العظمى الا وهي حب الله والقريب فجاهد اباء الكنيسة في صدر النصرانيَّة حتى أُلغيت المصارعة الدمويَّة وتمت نصرة الفضيلة

وها نحن والحمد لله تعالى في زمنٍ اتحدت بهِ قوى الانسان اتحاداً قلما كان معروفاً من قبل لان السابقين كانوا ينصرفون بكليتهم اما الى تعزيز قوى الجسم كما في سبارطه او الى تثقيف قوى العقل كما في اثينا وفي خلال ذلك يرفعون شيئاً من شأن النفس وقواها . اما اليوم فقد انصرفت همم اهل العلم إلى تعزيز الفضيلة . ولقد دفعت بنا النهضة إلى تحدي السابقين في المضمار فالحكمة تقضي علينا بالانتباه إلى انماء جرثومة الفضيلة لنعتز بها حساً ومعنى

فياسيداتي ان الصغار رجال غدٍ وهم مستقبلنا القريب ان شاء الله تعالى فاغرسنَ في

عقولهم واطبعنَ في نفوسهم حب الله والقريب وهي الفضيلة كلها حتى اذا ترعرعوا وصاروا فتيانًا وفتيات دخلوا المدارس وفي نفوسهم الذكيَّة جرثومة الفضيلة مغروسة من يد ام فاضلة

ولكن انَّى تنمو الغرسة الذكيَّة اذا دخل الصغير المدرسة ولم يلقَ فيها من يعتني بهِ بل كيف تحيي تلك الجرثومة اذا لم تكن الوسائل موافقةً لانمائها وازدهائها . فما هي هاتيك الوسائل الفعَّالة في انماء الفضيلة وارتقائها ان هي الاَّ التفات رؤساء مدارسنا واساتذتها واهتمامهم بمراقبة الطلبة وتثقيف نفوسهم والسعي بهم في سبيل الخير والابتعاد عن الشر

وليس هذا كل الواجب لان الطلبة اذا خرجوا من المدارس وقد نمت في نفوسهم غرسة الفضيلة وبسقت فروعها واخضارت اوراقها وازدهرت غصونها لا تلبث ان تكتنفها الحياة بمتاعبها واعمالها وبما ينصب لذويها من حبائل الشر . والغرسة مهما نمت وازدهرت لا تلبث طويلاً ان تذوي وتضمحل ان لم يتعهدها ذووها بالسقيا وضروب الاعتناء وكذا الفضيلة لا بدَّ لها ممن يذكّر بها ويتعهدها من وقت الى آخر بما يزيدها بهجةً ونموًّا ذلك ما يُفرض على قادة الافكار الذين ترتاح الى نفثات اقلامهم النفوس

فيا منشئي مجلاتنا العلميَّة ويا محرري جرائدنا الادبيَّة بل يا كتَّابنا البارعين وكثيرون من انتم في هذا المقام انَّا لنشكر لكم سعيكم المبرور في بث المعارف والآداب وانكم ما برحتم مجاهدين في سبيل الحضارة والعمران على انا نناشدكم بفضلكم ان تجردوا صفاح اقلامكم البارعة للخوض في مضمار الفضيلة وتأييد مبادئها ونشرها فانكم اذا فعلتم تسعون خيرًا وتنالون من الله اجرًا

بيروت ومناظرها

من قصيدة نظمها حضرة الشاعر المجيد رزق الله افندي حداد وتليت في جمعية يد المساعدة

إلَى كم تسيل الدمعَ والدمعُ جامدُ ... وتسألُ عمن في الغضا وتناشدُ

وما انت تبغي في العقيق وحاجرٍ ... وقد درست في القفر تلك المعاهدُ

ألم ترَ في بيروت ظبيًا تحبهُ ... حوتهُ قصورٌ ما حوتهُ الفدافدُ

وكم في حماها من ظباء اوانسٍ ... تخرُّ لها الآساد وهي سواجدُ

تلألأَ شعري في محاسنها كما ... تلألأَ في اجيادهنَّ القلائدُ

أُحبُّكِ يا بيروت يا موطن الصفا ... ففيكِ حياتي والمنى والمقاصدُ